الفصل الثالث

الأرض عنصر الاستيطان

كانت أراضى فلسطين هدفًا أوليًا للحركة الصهيونية، بوصفها القاعدة الرئيسة لعملية الاستيطان فى فلسطين، ولذلك تم تشكيل المؤسسات اليهودية المتخصصة بامتلاك الأراضى الفلسطينية وتسجيلها كملكية عامة، وكان الممول الأول لذلك الوكالة اليهودية والصندوق القومى اليهودى. وعمليًا فإنه حتى عام ١٨٥٥ لم يكن لليهود أية أملاك فى المدن والقرى الفلسطينية، باستثناء مدينة القدس، والخليل، وصفد وطبريا، حيث بدأت عمليات امتلاك الأراضى فى ذلك العام من قبل "موشى منتفيورى" وهو ثرى يهودى، قام بشراء قطعة أرض هى عبارة عن بستان حمضيات مساحته ١٠٠[١] دونم[٢] قرب يافا، وبعدها تم شراء قطعة أرض بطرق مختلفة فى "موزا" قرب القدس عام ١٨٥٩. وفى "ملبس" التى أصبح اسمها بتاح تكفا عام ١٨٧٨، وفى عيون قارة ريشو ليصيون وزمارين زخرون يعقوب، والجاعونة روش بينا عام ١٨٨٢، وحتى نهاية الحرب العالمية الأولى استطاعت الحركة الصهيونية امتلاك نحو ٤١٨[٣] ألف دونمًا من أراضى فلسطين بطرق مختلفة.

وقد أدّى الاستعمار البريطانى دورًا هامًا فى نقل ملكية كبيرة من الأراضى الفلسطينية على حساب العرب الفلسطينيين، فمع صدور صك الانتداب البريطانى على فلسطين عام ١٩٢٠، فإن الأراضى المسجلة باسم الدولة العثمانية، أعيد فتحها، مما أدى إلى بيع مساحة كبيرة منها لليهود، حيث تم شراء ٥٠٠ ألف دونمًا، إضافة إلى ٢٠٠ ألف دونم دون مقابل[٤]، كذلك تمكن اليهود من شراء

---

(١) عبد الرحمن أبو عرفة، الاستيطان التطبيق العملى للصهيونية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر دار الجليل للنشر، عمان ١٩٨١ ص١٠.

(٢) الدونم = ١٠٠٠ متر مربع.

(٣) المرجع نفسه ص١٠.

(٤) المرجع نفسه ص١٠.

مساحة (٦٢٥) ألف دونم من مرج "ابن عامر"، وكانت تضم (٢٢) قرية عربية اضطرت عائلاتها البالغ عددهم (٩٠٠) عائلة للرحيل عنها.

وضاعت أراضى امتياز فى "الحولة" ومساحتها ١٦٥ ألف دونم، وأراضى وادى "الحوارث" ومساحتها ١٣٢ ألف دونم و٢٨ ألف دونم فى كل من المدن التالية: صفد، الناصرة، عكا، بيسان، جنين، طولكرم، وتمكن اليهود من شراء ٣٠٠ ألف دونم، وحتى قرار التقسيم فى عام ١٩٤٧، تمكن اليهود من امتلاك ١٤٢٥٠٠٠[١] دونمًا من مساحة فلسطين، ومع تطور الكيان الصهيونى، تمكنت الحركة الصهيونية فى إسرائيل من السيطرة على ٧٨٪ من مساحة فلسطين.

وهكذا فالتجمع الإسرائيلى الراهن تجمع مصنوع وحديث، لم ينشأ خلال حركة تطور تاريخى طبيعية تمت على أرضه، بل نشأ أساسًا بقرار اتخذه المؤتمر الصهيونى الأول، استجابة لظروف سياسية واقتصادية وتاريخية معينة. أى أن هذا التجمع نشأ أولاً كصياغة فكرية، ثم بدأ أصحاب تلك الصياغة فى اصطناعه تجسيدًا لها. وهو بذلك يختلف تمامًا عن غيره من المجتمعات الطبيعية التى تنشأ أولاً ثم تتعدد وتتغير الأبنية الفكرية التى تعكس بنيتها التحتية وفقًا لمراحل التطور التاريخى[٢].

الأرض فى التوراة:

إن محاولة التوراة (العهد القديم) إبراز الحوادث التى وقعت لليهود وإظهار الشخصيات التى لها صلة بهم - على حد قولهم - قد جاء ليؤدى غرضًا سياسيًا فى محاولة لإظهار عراقة اليهود فى المنطقة، وقدم وجودهم البشرى ليدعم فكرة إنشاء كيان مستقل لهم يعتمد على جذور تاريخية خاصة بعد السبى البابلى، وقد

---

(١) المرجع نفسه ص١١.

(٢) قدرى حفنى، دراسة فى الشخصية الإسرائيلية، مركز بحوث الشرق الأوسط، جامعة عين شمس. ص٧١.

جاء تسجيل حوادث التوراة خدمة لمحاولة "قورش"[1] التى كانت تهدف إلى إقامة دولة يهودية فى فلسطين لحماية الحدود الغربية للإمبراطورية الفارسية من الهجمات البيزنطية، وقد أصدر قراره بعودة اليهود إلى فلسطين لبناء دولتهم فأعدوا مدونتهم التاريخية "التوراة" لتلعب دورها فى هذا الاتجاه[2].

ولا يوجد فى الكتاب المقدس وجهة نظر واحدة ومتناسقة فيما يتعلق بمسألة الأرض، بل رؤى مختلفة وفقًا لكل فترة. فالنصوص تدعم الإيمان بالوعد الذى أعطاه الرب لإبراهيم وذريته لتملك أرض كنعان[3]، والاعتقاد التام بأن استعمار

---

(١) يعتقد أنه ولد فى الفترة بين عام ٦٠٠ و٥٨٥ قبل الميلاد. وكان والده "قمبيز" من أفراد عائلة "الأخمنيين" الحاكمة وتعود أقدم معلومات موثوقة حول "قورش" إلى سنة ٥٥٨ قبل الميلاد حين أصبح حاكمًا لمنطقة "أنشان" الفارسية ليخلف والده عليها. قاد "قورش" بعد ذلك ببضع سنوات تمردًا على إمبراطورية "الميديين" الحاكمة، وتمكن من هزيمتهم بعد حرب لمدة ثلاث سنوات، وعاملهم برحمة وهو يضمهم إلى إمبراطوريته. كما تبنى "قورش" العديد من القوانين والإجراءات الإدارية التى وجدها عند الميديين.

(٢) ثريا منقوش (١٩٧٧). التوحيد فى تطوره التاريخى. بيروت: دار الطليعة. ص٥٥.

(٣) الكنعانيون قوم من العرب نزحوا إلى فلسطين من شبه الجزيرة العربية إثر الجفاف الذى حل بها، وذلك فى حوالى ٢٥٠٠ق.م. وهم أقدم الشعوب السامية التى سكنت فلسطين. ومنهم أخذت فلسطين اسمها فصارت تعرف باسم أرض كنعان. وقد اختيرت مدينة "نابلس" عاصمة بلاد "كنعان" لموقعها المتوسط من فلسطين.

وقد سكن الكنعانيون فلسطين قبل ميلاد المسيح بحوالى ٢٥٠٠ عام، وقبل دخول "العبرانيين" إليها حوالى ١١٨٩ق.م. وفى التوراة نصوص تدل على أن فلسطين كانت آهلة بالكنعانيين عندما دخلها العبرانيون. وقد بنى اليبوسيون، وهم بطن من الكنعانيين أسلاف العرب الساميين مدينة "القدس" وسموها "أورـ سالم"، أى مدينة السلام. وبقيت سيادة الكنعانيين فى فلسطين بين حوالى ٢٥٠٠ - ١٠٠٠ق.م. وفى أثناء هذه السيادة، هاجر إبراهيم الخليل من العراق إلى الشام واستقر فى شكيم (نابلس) ثم انتقل إلى بئر السبع فى أقصى جنوب فلسطين حيث ولد له اسماعيل، ثم نزح إلى مكة وعاد منها إلى فلسطين حيث رزق بولده الثانى إسحاق. (الموسوعة العربية العالمية، ٢٥: ٢٣٤).

هذه الأرض ما هو إلا تطبيق لإرادته[1]، تقرأ ذلك فى سفر التكوين:

"٦وَاجْتَازَ أَبْرَامُ فِي الأَرْضِ إِلَى مَكَانِ شَكِيمَ إِلَى بَلُّوطَةِ مُورَةَ. وَكَانَ الْكَنْعَانِيُّونَ حِينَئِذٍ فِي الأَرْضِ. ٧وَظَهَرَ الرَّبُّ لأَبْرَامَ وَقَالَ: «لِنَسْلِكَ أُعْطِي هذِهِ الأَرْضَ»"[2].

ثم ذهب أبرام إلى مصر بسبب المجاعة: "وَحَدَثَ جُوعٌ فِي الأَرْضِ، فَانْحَدَرَ أَبْرَامُ إِلَى مِصْرَ لِيَتَغَرَّبَ هُنَاكَ، لأَنَّ الْجُوعَ فِي الأَرْضِ كَانَ شَدِيدًا"[3] وبعد خروجه من مصر رجع إلى بيت إيل، حيث كانت الأرض صغيرة لا تكفى لوجود إبراهيم ولوط عليهما السلام، حتى إن نزاعًا كان بينهما، وهو ما يؤكده النص التالى: "٥وَلُوطٌ السَّائِرُ مَعَ أَبْرَامَ، كَانَ لَهُ أَيْضًا غَنَمٌ وَبَقَرٌ وَخِيَامٌ. ٦وَلَمْ تَحْتَمِلْهُمَا الأَرْضُ أَنْ يَسْكُنَا مَعًا، إِذْ كَانَتْ أَمْلاَكُهُمَا كَثِيرَةً، فَلَمْ يَقْدِرَا أَنْ يَسْكُنَا مَعًا. ٧فَحَدَثَتْ مُخَاصَمَةٌ بَيْنَ رُعَاةِ مَوَاشِي أَبْرَامَ وَرُعَاةِ مَوَاشِي لُوطٍ. وَكَانَ الْكَنْعَانِيُّونَ وَالْفَرِزِّيُّونَ حِينَئِذٍ سَاكِنِينَ فِي الأَرْضِ. ٨فَقَالَ أَبْرَامُ لِلُوطٍ: «لاَ تَكُنْ مُخَاصَمَةٌ بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَبَيْنَ رُعَاتِي وَرُعَاتِكَ، لأَنَّنَا نَحْنُ أَخَوَانِ. ٩أَلَيْسَتْ كُلُّ الأَرْضِ أَمَامَكَ؟ اعْتَزِلْ عَنِّي. إِنْ ذَهَبْتَ شِمَالاً فَأَنَا يَمِينًا، وَإِنْ يَمِينًا فَأَنَا شِمَالاً»"[4].

وبعد هذا التقسيم استقر إبرام (إبراهيم) فى أرض كنعان، وقال له الرب:

"ارْفَعْ عَيْنَيْكَ وَانْظُرْ مِنَ الْمَوْضِعِ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ شِمَالاً وَجَنُوبًا وَشَرْقًا وَغَرْبًا، ١٥لأَنَّ جَمِيعَ الأَرْضِ الَّتِي أَنْتَ تَرَى لَكَ أُعْطِيهَا وَلِنَسْلِكَ إِلَى الأَبَدِ. ١٦وَأَجْعَلُ نَسْلَكَ كَتُرَابِ الأَرْضِ، حَتَّى إِذَا اسْتَطَاعَ أَحَدٌ أَنْ يَعُدَّ تُرَابَ الأَرْضِ فَنَسْلُكَ أَيْضًا يُعَدُّ. ١٧قُمِ امْشِ فِي الأَرْضِ طُولَهَا وَعَرْضَهَا، لأَنِّي لَكَ أُعْطِيهَا"[5]

---

(١) الكتاب المقدس والاستعمار، مايكل بريور، ترجمة وفاء بجاوى، ص٢٤ .

(٢) سفر التكوين ١٢: ٦ - ٧ .

(٣) سفر التكوين ١٢: ١٠ .

(٤) سفر التكوين ١٢: ٥ - ٦ .

(٥) سفر التكوين ١٣: ١٤ - ١٧ .

هذا فى الوقت الذى كان الكنعانيون يسكنون الأرض، ولا يكتفى الرب بذلك بل كان الوعد الإلهى والمواثيق مع "إبرام" بمساحات أخرى من الأرض حتى ولو كانت مسكونة بأهلها: " ١٨فِي ذلكَ الْيَوْمِ قَطَعَ الرَّبُّ مَعَ أَبْرَامَ مِيثَاقًا قَائِلاً: «لنَسْلِكَ أُعْطِي هذه الأَرْضَ، مِنْ نَهْرِ مِصْرَ إِلَى النَّهْرِ الْكَبِيرِ، نَهْرِ الْفُرَاتِ. ١٩الْقِينِيِّينَ وَالْقَنَزِّيِّينَ وَالْقَدْمُونِيِّينَ ٢٠وَالْحِثِّيِّينَ وَالْفَرِزِّيِّينَ وَالرَّفَائِيِّينَ ٢١وَالأَمُورِيِّينَ وَالْكَنْعَانِيِّينَ وَالْجِرْجَاشِيِّينَ وَالْيَبُوسِيِّينَ»"(١).

ويؤكد سفر التكوين غربة اليهود منذ البدايات وعدم أحقيتهم شبر واحد فى فلسطين، وذلك من خلال الوعد الإلهى لإبراهيم، حيث السكان الأصليون للأرض وهم الكنعانيون: "٧وَأُقِيمُ عَهْدِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَبَيْنَ نَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ فِي أَجْيَالِهِمْ، عَهْدًا أَبَدِيًّا، لأَكُونَ إِلهًا لَكَ وَلنَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ. ٨وَأُعْطِي لَكَ وَلنَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ أَرْضَ غُرْبَتِكَ، كُلَّ أَرْضِ كَنْعَانَ مُلْكًا أَبَدِيًّا. وَأَكُونُ إِلهَهُمْ"(٢) ثم كان النص الصريح بأن السكان الأصليين هم الفلسطينيين: "٣٤وَتَغَرَّبَ إِبْرَاهِيمُ فِي أَرْضِ الْفِلِسْطِينِيِّينَ أَيَّامًا كَثِيرَةً"(٣).

وينبهنا سفر الخروج إلى غربة اليهود عن الأرض وأنهم وافدون على سكانها الأصليين فيقول: " أَنَا الرَّبُّ. ٣وَأَنَا ظَهَرْتُ لإِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ بِأَنِّي الإِلهُ الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ. وَأَمَّا بِاسْمِي «يَهْوَهْ» فَلَمْ أَعْرَفْ عِنْدَهُمْ. ٤وَأَيْضًا أَقَمْتُ مَعَهُمْ عَهْدِي: أَنْ أُعْطِيَهُمْ أَرْضَ كَنْعَانَ أَرْضَ غُرْبَتِهِمِ الَّتِي تَغَرَّبُوا فِيهَا"(٤).

وعندما استقر الإسرائيليون فى أرض كنعان صدرت الأوامر بعدم احترام المواثيق والمعاهدات: " ١٢احْتَرِزْ مِنْ أَنْ تَقْطَعَ عَهْدًا مَعَ سُكَّانِ الأَرْضِ الَّتِي أَنْتَ

---

(١) سفر التكوين ١٥: ١٨ - ٢١ .

(٢) سفر التكوين ١٧: ٧ - ٨ .

(٣) سفر التكوين ٢١: ٣٤ .

(٤) سفر الخروج ٦: ٢ - ٤ .

آت إِلَيْهَا لِئَلاَّ يَصِيرُوا فَخًّا فِي وَسَطِكَ، ١٣بَلْ تَهْدِمُونَ مَذَابِحَهُمْ، وَتُكَسِّرُونَ أَنْصَابَهُمْ، وَتَقْطَعُونَ سَوَارِيَهُمْ»(١).

بل تؤكد النصوص أن الأرض لم يكن بها أحد من بنى إسرائيل، فتجد فى سفر القضاة أن غلامًا يتحدث إلى سيده فيقول: «قَالَ الْغُلاَمُ لِسَيِّدِهِ: «تَعَالَ نَمِيلُ إِلَى مَدِينَةِ الْيَبُوسِيِّينَ هذِهِ وَنَبِيتُ فِيهَا». ١٢فَقَالَ لَهُ سَيِّدُهُ: «لاَ نَمِيلُ إِلَى مَدِينَةٍ غَرِيبَةٍ حَيْثُ لَيْسَ أَحَدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ هُنَا»(٢).

ثم كانت طقوس الاحتفال بعيد الفصح، وما هى إلا طقوس الاحتفال بالاستقرار فى فلسطين: «١٨تَحْفَظُ عِيدَ الْفَطِيرِ. سَبْعَةَ أَيَّامٍ تَأْكُلُ فَطِيرًا كَمَا أَمَرْتُكَ فِي وَقْتِ شَهْرِ أَبِيبَ، لأَنَّكَ فِي شَهْرِ أَبِيبَ خَرَجْتَ مِنْ مِصْرَ»(٣).

وثمة ملاحظة يجب الانتباه إليها وهى عندما وعد الله إبراهيم بالأرض من النيل للفرات - حسب الرواية التوراتية - كان هذا الوعد لإبراهيم قبل مولد اسماعيل وإسحاق عليهما السلام، أى أن هذا الوعد بالأرض للعرب أيضًا وليس لليهود وحدهم. فعندما قال الرب لإبراهيم: "لنسلك أعطى هذه الأرض" فإن كلمة "نسلك" تشمل العرب أيضًا من ذرية إبراهيم من أبناء اسماعيل عليهما السلام، إلا أنه فى عهد إسحق ويعقوب ضاق معنى الوعد بحيث شمل نسلهم فقط دون أن يحرم إخوانهم أبناء اسماعيل بشكل صريح من هذا الحق، كما أن الوعد بالأراضى الممتدة من النيل للفرات أعطى قبل مولد كل من اسماعيل وإسحق - عليهما السلام - وهذا يعنى أن تلك الأرض ليست خالصة للإسرائيليين وحدهم.

وما صرحت به التوراة من كون اليهود غرباء فى أرض فلسطين أكدته وأثبتته الوثائق الصحيحة والمكتشفات الأثرية، يقول الخبراء: إن اليهود غرباء عن أرض

---

(١) سفر الخروج ٣٤: ١٢ - ١٤ .

(٢) سفر القضاة ١٩: ١١ - ١٢ .

(٣) سفر الخروج ٣٤: ١٨ .

فلسطين، وما كان عندهم من المقومات الثقافية بما فيها اللغة إنما هو مقتبس من الحضارات التى سبقتهم كالحضارة الكنعانية والآرامية وهما من أصل عربى، كما أثبتت الوثائق التاريخية أن مملكة داود وسليمان - عليهما السلام - التى قامت فى القرن العاشر قبل الميلاد إنما قامت على تراث كنعانى عربى نشأ قبل اليهودية بعدة قرون[1].

ويجمع المؤرخون على أن اليبوسيين أحد أفرع الكنعانيين العرب هم من أسس مدينة القدس، وكان بناء تلك المدينة فى حوالى الألف الثالث قبل الميلاد، وقد عُرفت المدينة أول ما عرفت باسم "سالم" وكان أول ذكر لها فى النصوص المصرية القديمة فى القرنين التاسع عشر والثامن عشر قبل الميلاد، كما ورد ذكرها فى رسائل تل العمارنة[2] فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد باسم "يورو - سالم" وقد نشأت كمدينة مقدسة أقام بها الكنعانيون العرب بيتًا للعبادة يذكر فيها اسم الله إذ كانوا يعتقدون فى وحدانية الله، واستمرت هذه صفة المدينة مع توالى الرسالات السماوية وانتقال أهل القدس من الديانة الكنعانية إلى اعتناق الأديان السماوية الثلاث: اليهودية فالمسيحية فالإسلام.

لقد أطلق على القبائل التى استقرت فى الساحل الشمالى من البحر المتوسط اسم الفينيقيين لاشتغالهم باستخراج وتجارة الفينكس، وقد أطلق على الكنعانيين الذين استقروا بجنوب وسط أرض كنعان - منطقة القدس اليوم - اسم اليبوسيين،

---

(١) أحمد سوسة (١٩٨١). مفصل العرب واليهود فى التاريخ. (ط٥). بغداد: دار الحرية للطباعة. ص٢٢٥ .

(٢) اكتشفت هذه الرسائل فى عام ١٨٨٧م فى قرية تل العمارنة بمنطقة أواسط مصر، وهى الرسائل التى بعث بها أمراء سريون إلى الفرعون أمنحوتب الثالث وابنه أخناتون يطلبون منه النجدة العسكرية ضد أعدائهم وأعداء مصر، وبلغ عدد هذه الرسائل٣٧٧ رسالة. (عبلة المهتدى، القدس تاريخ وحضارة، ص٦٨).

وعلى الذين سكنوا أقصى جنوب أرض كنعان اسم العناقيين، وهؤلاء هم الذين أقاموا مدينة أربع التى عرفت باسم حبرن[1].

فالقدس عربية منذ نشأتها، واليهود لم يكونوا أصلاً من أهل القدس، وإنما هم وافدون عليها، حيث كان بها سكان أصليون يتألفون من الكنعانيين الفلسطينيين العرب. وإذا كانت أرض فلسطين ملكًا للكنعانيين والفلسطينيين قبل قدوم العبرانيين إليها فلماذا أعطى الرب هذه الأرض لبنى إسرائيل، وحكم على أهلها الأصليين بالفناء؟ هل لأن أهلها الأصليين كانوا كفارًا وثنيين؟ هل نسيتم أن حقائق التاريخ والتوراة تشهد بذلك أن بنى إسرائيل نقضوا الميثاق مع الله وخالفوا أوامره ومالوا عن عبادته؟ فلماذا يستمر الوعد الإلهى بتمليك أرض فلسطين لهم؟ ومازال اليهود اليوم على أخلاق السابقين من الانحراف عن شريعة الله ونبذ العهود والمواثيق. هل لأنه شعب مقدس كما نطق بذلك سفر التثنية: " ٦لأَنَّكَ أَنْتَ شَعْبٌ مُقَدَّسٌ لِلرَّبِّ إِلهِكَ. إِيَّاكَ قَدِ اخْتَارَ الرَّبُّ إِلهُكَ لِتَكُونَ لَهُ شَعْبًا أَخَصَّ مِنْ جَمِيعِ الشُّعُوبِ الَّذِينَ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ "[2].

أم لأنهم شعب الله المختار وأن الكنعانيين شعب وضيع بحسب النشأة الأولى، قد خلقه الله ليكون رقيقًا للإسرائيليين، حيث كانوا يعتقدون أن هذا الوضع قد نشأ من الدعوة التى دعاها نوح على ابنه حام ونسله، كما ورد فى سفر التكوين: " ٢٠وَابْتَدَأَ نُوحٌ يَكُونُ فَلاَّحًا وَغَرَسَ كَرْمًا. ٢١وَشَرِبَ مِنَ الْخَمْرِ فَسَكِرَ وَتَعَرَّى دَاخِلَ خِبَائِهِ. ٢٢فَأَبْصَرَ حَامٌ أَبُو كَنْعَانَ عَوْرَةَ أَبِيهِ، وَأَخْبَرَ أَخَوَيْهِ خَارِجًا. ٢٣فَأَخَذَ سَامٌ وَيَافَثُ الرِّدَاءَ وَوَضَعَاهُ عَلَى أَكْتَافِهِمَا وَمَشَيَا إِلَى الْوَرَاءِ، وَسَتَرَا عَوْرَةَ أَبِيهِمَا وَوَجْهَاهُمَا إِلَى الْوَرَاءِ. فَلَمْ يُبْصِرَا عَوْرَةَ أَبِيهِمَا. ٢٤فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ نُوحٌ مِنْ خَمْرِهِ، عَلِمَ مَا فَعَلَ بِهِ ابْنُهُ الصَّغِيرُ، ٢٥فَقَالَ: «مَلْعُونٌ كَنْعَانُ! عَبْدَ الْعَبِيدِ يَكُونُ

---

(١) محمد أديب العامرى (١٩٧٢). عروبة فلسطين فى التاريخ. بيروت: المكتبة العصرية. ص٢٥ .

(٢) سفر التثنية ٧: ٦ .

لإِخْوَتِهِ». ٢٦وَقَالَ: «مُبَارَكٌ الرَّبُّ إِلهُ سَامٍ. وَلْيَكُنْ كَنْعَانُ عَبْدًا لَهُمْ. ٢٧لِيَفْتَحِ اللهُ لِيَافَثَ فَيَسْكُنَ فِي مَسَاكِنِ سَامٍ، وَلْيَكُنْ كَنْعَانُ عَبْدًا لَهُمْ»[١].

فهم يزعمون أنهم شعب الله المختار إلى الأبد، وأن هذا الاختيار قائم على حسن حسبهم ونسبهم ولا علاقة له بالإيمان والعمل، فقد جاء فى سفر التكوين: «٢١وَلكِنْ عَهْدِي أُقِيمُهُ مَعَ إِسْحَاقَ الَّذِي تَلِدُهُ لَكَ سَارَةُ فِي هذَا الْوَقْتِ فِي السَّنَةِ الآتِيَةِ»[٢].

ويعتبرون هذا العهد والاصطفاء ماضيًا فيهم إلى قيام الساعة. ففى نص آخر يقول: «وَتَدْعُو اسْمَهُ إِسْحَاقَ. وَأُقِيمُ عَهْدِي مَعَهُ عَهْدًا أَبَدِيًّا لِنَسْلِهِ مِنْ بَعْدِهِ»[٣].

بل رأوا أن الاستيطان تطبيق للتوراة مثلما كان غزو يشوع استمرارًا لتعاليم موسى ورسالته على الأرض، ورأوا أن كل استيطان جديد شهادة جديدة على اختيار الله لشعب إسرائيل وصدق التوراة وكلمة الرب وأنبيائه: «٣٣هكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: فِي يَوْمِ تَطْهِيرِي إِيَّاكُمْ مِنْ كُلِّ آثَامِكُمْ، أُسْكِنُكُمْ فِي الْمُدُنِ، فَتُبْنَى الْخِرَبُ. ٣٤وَتُفْلَحُ الأَرْضُ الْخَرِبَةُ عِوَضًا عَنْ كَوْنِهَا خَرِبَةً أَمَامَ عَيْنَيْ كُلِّ عَابِرٍ. ٣٥فَيَقُولُونَ: هذِهِ الأَرْضُ الْخَرِبَةُ صَارَتْ كَجَنَّةِ عَدْنٍ، وَالْمُدُنُ الْخَرِبَةُ وَالْمُقْفِرَةُ وَالْمُنْهَدِمَةُ مُحَصَّنَةً مَعْمُورَةً. ٣٦فَتَعْلَمُ الأُمَمُ الَّذِينَ تُرِكُوا حَوْلَكُمْ أَنِّي أَنَا الرَّبَّ، بَنَيْتُ الْمُنْهَدِمَةَ وَغَرَسْتُ الْمُقْفِرَةَ. أَنَا الرَّبُّ تَكَلَّمْتُ وَسَأَفْعَلُ»[٤].

ومن تأمل الآيات القرآنية وتأمل النصوص التوراتية يقف على حقيقة هامة، وهى أن هذا الاختيار والتفضيل مقيداً مشروطًا . . فهو لا يتحقق إلا بتحقق شرطه وهو الإيمان بالله وطاعته والوقوف عند أمره ونهيه، أى حفظ عهد الله الذى

---

(١) سفر التكوين ٩: ٢٠ - ٢٧ .

(٢) تكوين ١٧: ٢١ .

(٣) تكوين ١٧: ١٩ .

(٤) سفر حزقيال ٣٦: ٣٣ - ٣٦ .

عاهدهم به ورعاية ميثاقه الذى واثقهم به، فإن فعلوا ذلك كانوا شعبًا مختارًا مفضلاً، وإن لم يفعلوا فليس ثمة اصطفاء لهم أو تفضيل.

جاء فى سفر الخروج فى كلام موجه من الرب لموسى: "هكَذَا تَقُولُ لِبَيْتِ يَعْقُوبَ، وَتُخْبِرُ بَنِي إِسْرَائِيلَ: ٤أَنْتُمْ رَأَيْتُمْ مَا صَنَعْتُ بِالْمِصْرِيِّينَ. وَأَنَا حَمَلْتُكُمْ عَلَى أَجْنِحَةِ النُّسُورِ وَجِئْتُ بِكُمْ إِلَيَّ. ٥فَالآنَ إِنْ سَمِعْتُمْ لِصَوْتِي، وَحَفِظْتُمْ عَهْدِي تَكُونُونَ لِي خَاصَّةً مِنْ بَيْنِ جَمِيعِ الشُّعُوبِ"(١)، كما جاء فى سفر التثنية: "١٣وَيَجْعَلُكَ الرَّبُّ رَأْسًا لاَ ذَنَبًا، وَتَكُونُ فِي الارْتِفَاعِ فَقَطْ وَلاَ تَكُونُ فِي الانْحِطَاطِ، إِذَا سَمِعْتَ لِوَصَايَا الرَّبِّ إِلهِكَ الَّتِي أَنَا أُوصِيكَ بِهَا الْيَوْمَ، لِتَحْفَظَ وَتَعْمَلَ ١٤وَلاَ تَزِيغَ عَنْ جَمِيعِ الْكَلِمَاتِ الَّتِي أَنَا أُوصِيكَ بِهَا الْيَوْمَ يَمِينًا أَوْ شِمَالاً، لِكَيْ تَذْهَبَ وَرَاءَ آلِهَةٍ أُخْرَى لِتَعْبُدَهَا"(٢).

ويؤكد القرآن الكريم فى آيات كثيرة أن الله تعالى قد عاهد بنى إسرائيل وواثقهم، قال تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾(٣)، ويقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ... ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿... ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾(٤).

وقد رد القرآن الكريم عليهم دعواهم أنهم أرقى الأمم بقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ... ﴿٥﴾﴾(٥).

فهل حفظ بنو إسرائيل العهد والتزموا بالميثاق؟؟

القاعدة أن ما صدقه القرآن مما جاء فى الكتب السابقة صدقناه، وما كذبه كذبناه وما سكت عنه سكتنا عنه فلا نصدق به ولا نكذب، ولقد جاء فى فتح

---

(١) الخروج ١٩: ٣ - ٥ .

(٢) تثنية ٢٨: ١٣ - ١٤ .

(٣) سورة البقرة: ٤٠ .

(٤) سورة البقرة: ٨٣ .

(٥) سورة الجمعة: ٥ .

البارى فى شرح قوله - ﷺ -: "لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم" أى: إذا كان ما يخبرونكم به محتملاً لئلا يكون فى نفس الأمر صدقًا فتكذبوه أو كذبًا فتصدقوه فتقعوا فى الحرج، ولم يرد النهى عن تكذيبهم فيما ورد شرعنا بخلافه ولا عن تصديقهم فيما ورد شرعنا بخلافه.

والحق أن آيات القرآن الكريم تتفق مع نصوص التوراة الحالية فى هذه النقطة مما يؤكد أن ما ورد فى أسفار التوراة الحالية حول هذه المسألة أنهم لم يحفظوا، بل فرطوا وضيعوا فخسروا بذلك حقهم فى الاصطفاء.

فما من سفر من أسفارهم إلا يزخر بعبارات السخط والغضب التى صبها الله على بنى إسرائيل فى كل عهودهم منذ أن أخرجهم الله من مصر إلى أن أهلكهم بظلمهم وقضى بخراب بلادهم. جاء فى سفر الخروج: "٩وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «رَأَيْتُ هذَا الشَّعْبَ وَإِذَا هُوَ شَعْبٌ صُلْبُ الرَّقَبَةِ. ١٠فَالآنَ اتْرُكْنِي لِيَحْمَى غَضَبِي عَلَيْهِمْ وَأُفْنِيَهُمْ»"(١).

ويقول تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ... (١٦٧)﴾(٢).

ويؤكد ذلك ما جاء فى مجلة البيان فى عددها الصادر فى ربيع الآخر ١٤٢٣ هـ: "أعلن السيد عبد العزيز الرنتيس المتحدث باسم حركة المقاومة الفلسطينية حماس، أن ما يقرب من مليون إسرائيلى هربوا من فلسطين المحتلة بسبب العمليات الإستشهادية التى تريد السلطة الفلسطينية إيقافها. وقال الرنتيس فى حديث مع التليفزيون المصرى: إن عددًا كبيرًا من رؤوس الأموال الإسرائيلية سحبت من إسرائيل وأن الشلل قد أصاب الحياة داخل إسرائيل وكذلك أصيبت السياحة بأضرار بالغة بسبب تلك العمليات".

---

(١) الخروج ٣٢: ٩ - ١٠.

(٢) الأعراف: ١٦٧.

لقد قام بنو إسرائيل الأوائل بعالمية الدعوة إلى الأمم فأسلمت ملكة سبأ مع سليمان لله رب العالمين. وآمن أهل نينوى فى العراق برسالة يونس عليه السلام وهو من أنبياء أورشليم. يقول تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ... ﴿١٦٩﴾﴾[1].

" ثم أن شرذمة منهم جرؤت على كتاب الله فأعادوا كتابته وبدلوه ولبسوا الحق بالباطل، حتى تكون التوراة شريعة لهم وحدهم مستبعدين الأمم من الدخول فى دينهم ليحافظوا على كيانهم أبد الدهر. وقد اعترف أنبياؤهم بذلك التحريف المتعمد فقد كتب أرمياء فى سفره (قد حرفتم كلام الإله الحى)[2].

لقد تعرض اليهود إلى حملة إبادة منذ أن سلط عليهم القائد الرومانى "طيطس" عام ٧٠م وقام بحرق المدينة المقدسة، ولم يبق فيها حجر على حجر، وقتل منهم عشرات الألوف، وحظر على الباقين دخول القدس، مما اضطرهم إلى الفرار إلى مصر والجزيرة العربية وغيرها[3].

ثم سلط عليهم طاغية آخر هو "أدريانوس" الذى أزاح المدينة المقدسة سنة ١٣٥م وحرث الأرض حرثًا ليقيم مكان الأنقاض معبدًا وثنيًا سماه "جوبيتار" على اسم رب الآلهة عند الرومان الوثنيين، ومن ذلك الوقت وليس لليهود أثر أو أى قيمة تاريخية تذكر فى فلسطين. ومن ذلك التاريخ وإلى منتصف القرن العشرين ١٩٤٨ وبذلك تسقط القيمة العلمية أو التاريخية لحق اليهود فى فلسطين.

---

(١) الأعراف: ١٦٩ .

(٢) أرمياء ٢٣: ١٥ .

(٣) ديورانت، قصة الحضارة، ج٣، القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٧٣ .

مراحل الاستيطان:

المرحلة الأولى: وتمتد ما بين عامى ١٨٤٠ و١٨٨٢، وذلك مع خروج محمد على باشا وابنه إبراهيم باشا من فلسطين وعودة فلسطين للسلطة العثمانية وأنشئ خلال تلك الفترة ست مستوطنات إسرائيلية[١].

المرحلة الثانية: وتمتد خلال عامى ١٨٨٢ و١٩٢٠، إذ وصل عدد المستوطنات حتى نهاية عام ١٩٢٠ إلى ٤٤ مستوطنة، أقيم ١٦ منها على طول الخط الحديدى بين يافا والقدس و٤ مستوطنات على نهر العوجا الذى يصب شمال يافا، وأربع وعشرون مستوطنة فى الجليل والسهل الساحلى.

المرحلة الثالثة: وتمتد بين عامى ١٩٢٠ وحتى أيار ١٩٤٨، وخلال تلك الفترة كان الدعم غير محدود، من قبل سلطات الانتداب البريطانى، لجهة إيجاد وقائع استيطانية يهودية فى فلسطين، فوصل عدد المستوطنات فى فلسطين إلى ١١٠ مستوطنات فى عام ١٩٢٧، ارتفع المجموع نتيجة النشاط الاستيطانى الصهيونى الكثيف ليصل إلى ٢٩١ مستوطنة زراعية حتى عام ١٩٤٨ .

المرحلة الرابعة: وتمتد خلال الفترة ١٩٤٨ ـ ١٩٦٧، وقد استطاعت السلطات الصهيونية حتى عام ١٩٦٧ إقامة ٤١٩ مستوطنة يهودية، وقد اعتمد الكيان الصهيونى فى تخطيطه لإقامة المستوطنات خلال الفترة المذكورة على عامل السياج الأمنى والاقتصادى معًا، وقد رافق إنشاء المستوطنات جذب مزيد من يهود العالم إلى فلسطين عبر تهيئة ظروف للهجرة الطاردة من دول المنشأ باتجاه فلسطين.

المرحلة الخامسة: وتمتد هذه المرحلة بين السنوات ١٩٦٧ ـ ٢٠٠١، ففى الخامس من حزيران ١٩٦٧، احتل الجيش الصهيونى باقى الأراضى الفلسطينية، وقد شرعت قوات الاحتلال فى بناء المستوطنات من أجل إقامة سياج أمنى، وحتى يستحيل التواصل الجغرافى والديموغرافى بين مدن الضفة[٢].

---

(١) مجلة شئون فلسطينية، عدد١٠٣، ص١٢٥، ١٩٨٠ .

(٢) فلسطين أرض وشعب، نبيل محمود السهيلى، اتحاد الكتاب العرب (د.ت).

وقد كشفت خريطة الاستيطان فى فترة حكم حزب العمل (١٩٦٧ - ١٩٧٧) أنه قد تم إقامة (٥٨) مستوطنة، منها (٥٣) مستوطنة فى الضفة الفلسطينية، وقد استوعبت خلال تلك الفترة ٨٢ ألف مستوطن يهودى، منهم ٧٥ ألفًا فى القدس، و٦٥٠٠ فى باقى مستوطنات الضفة، و(٥٠٠) مستوطن يهودى فى قطاع غزة[١].

وخلال فترة حكم الليكود (١٩٧٧- ١٩٨٤) تم إنشاء مدن يهودية كبيرة، وتوسيع المستوطنات، كما عمد إلى تكثيف الاستيطان الزراعى على طول نهر الأردن فى منطقة الغور، وإلى شق طرق مواصلات كثيفة للاتصال بين المستوطنات، وخطط الليكود لإنشاء (١١٨) مستوطنة منها (١٠٥) مستوطنات فى الضفة الفلسطينية، بما فيها مستوطنات داخل حدود بلدية القدس، التى كان للاستيطان فيها مركزية مشاريع الاستيطان، كما خطط لإنشاء المستوطنات الباقية (١٣) مستوطنة فى قطاع غزة، وعمل الليكود خلال فترة حكمه لرفع مجموع المستوطنين من (٦٥٠٠) مستوطن عام ١٩٧٧ إلى ٨٥ ألف مستوطن عام ١٩٨٤ بلغ عدد المستوطنات القائمة (١٧٩) مستوطنة فى الضفة وقطاع غزة والشطر الشرقى من القدس حتى التاريخ المذكور.

وفى فترة حكم "نتنياهو"[٢] كشف النقاب عن مخططات استيطانية إسرائيلية، تستهدف زيادة عدد المستوطنين اليهود فى الأراضى العربية المحتلة إلى ٥٠٠ ألف مستوطن، أى ثلاثة أضعاف عددهم فى العام المذكور حتى العام ٢٠٠٠، كما تستهدف المخططات الاستيطانية الإسرائيلية زيادة مجموع المستوطنين اليهود فى هضبة الجولان السورية المحتلة إلى ٢٥ ألف مستوطن خلال الفترة نفسها.

---

(١) المرجع السابق.

(٢) صاحب فكرة شبكة الأنفاق تحت الأقصى.

ومع مجيء الإرهابى "شارون" إلى الحكم فى إسرائيل إثر الانتخابات التى جرت فى ٢٠٠١، فإن البنية التحتية والمخططات الاستيطانية باتت جاهزة لمزيد من النشاط الاستيطانى الذى ركز عليه "شارون" فى حملته الانتخابية، فكل فترة يحكم فيها العمل أو الليكود تؤسس لنشاط استيطانى قادم، من خلال المخططات الاستيطانية وبنود الإنفاق عليها من الموازنة الإسرائيلية السنوية، ومن المؤكد أن شارون سعى إلى تكثيف الاستيطان فى القدس لأسباب سياسية معروفة.

وكل قطعة أرض يتم الاستيلاء عليها لا يجب على اليهود أن يفرطوا فيها، ومن يفعل ذلك يجب قتله، ففى أثناء انعقاد اجتماع سبق اغتيال "رابين" كان زعيم الليكود "بنيامين نتانياهو" يقف على المنصة أمام تجمع المعارضين لرابين، الذى وصفوه بأنه "هتلر"، وهتفوا صارخين: رابين خائن. وأكد العديد من الخاخامات مثل: "موشيه تندلر" و"أبراهام هيشت" من نيويورك أنه لن يتم التخلى عن بوصة واحدة من الأراضى التى تم احتلالها، وأضاف "هيشت" إن أى زعيم يهودى يسلم الأرض اليهودية يجب قتله[1].

***

(١) مايكل بريور (٢٠٠٦). الكتاب المقدس والاستعمار. ص١٨٥ .